

تأملات

يكشفها المتأمل في اثناء لذة وسرور، وفي اثناء ألم وحزن

بقلم ادوار مرقص

من اعضاء المجمع الطبي في دمشق

حدثني من اعرفه اكثر من كل الناس ، واثق بصحة حسه وحده اكثر
من كل الناس ، قال :

صحتي، في سحابة عمري اوقات لذة وسرور، كما صحت غيري من توفيق
في سعي وعمل ، او تمتع بمجتمع لهم وانس ، او نحو ذلك من مباحج الحياة .
فكنت ارى نفسي في اثنائها حليماً ، واسع الصدر ، بيد النور في التأمل
والتفكير ، منتبهاً الى خطايي في كثير من ميول لي سابقة واحكام اديبة على
الاشياء والحوادث والاشخاص، حتى قلت في نفسي حياً الله هذه الساعات الطيبة
من ايام حياتي ، فقد اطلعتني على جانب من حقائق الكون ، وكأنها هبطت بها
علي وحياً سهارياً ، كما لم توصلني اليه في عشرات السنين كسبي ودفاتري والابحاث
والدروس المضة المضية . كان صدري يتسع ، ومشاعري ومداركي تملق الى
طبقة عالية في تلك السريعات الطيبة . فاقول : ما اشرف الحياة وصفر الحياة
ويهجتها ، وما اجدها نسيماً بالانسان العاقل ، او ما اجدر الانسان العاقل بها اذا
ترفع عما اعتاده ، وعما اعتادته بيته من خطط ورجاء في امور يحجبها عظيمة
جوهرية ، وما هي غير اباطيل او شبه اباطيل بمقارنتها وضعفها في جنب ما ينبغي
ان تهجر وتداس لاجله غير مأسوف عليها، اي في جنب الحصول على سلامة النفس
وراحة الضمير وابتهاج القلب واكتساب الثقة والمودة والاكرام عند الخاص
والعام ، وقد اشار الى ذلك الشاعر العربي حيث قال :

كانك من كل الطباع مركبٌ فانت الى كل الغلوب حبيبٌ

وارضح منه مقصداً واتمَّ بلاوةً لما نحن فيه قول الآخر :

نصور بناس كلهم سكناً ومثل الارض كها دارا

نعم فليتصور العاقل الناس كلهم احياء تسكن اليهم نومه بمعنى ترقاح ،
والارض على طولها وعرضها داراً له تضمن امانه واطمئنانه .

عرفت ان المحبة ذات نفوذ عظيم عجيب ، له اول وليس له آخر . المحبة
الانسانية ، اذا اختارها الانسان له مبدأ وديناً في غدواته وروحاته ، حميد
مغتنياً ، وعلم علم اليقين انها لا تبقي ولا تذر شيئاً من اثر اعرجاج او خلل
او جور في هذا الجار او ذلك القريب او ذلك الصديق . المحبة تجتاح كل عيب
وكل نقص ولا تبالي بشيء من هذا القليل . فالمحبة بطبيعتها مجر زاخر قد يقع
فيه من الاقدار والادناس ما لا يُحصى ولا يستقصى ، ولكن حيات هيات ان
يبالي البحر بها بل يقبلها ويحماها ثم يغرها ويفيها ثم ينساها ويظل البحر بها
مجرأ لا يتدنس بها مازده . ولا تزول هيئته ولا رواؤه .

المحبة مجر زاخر ، وان شبهتها بالجليل العظيم الشامخ لم تبعد عن الصواب ،
فكما انها كالبحر تشبه الجبل ايضاً من حيث انه لا يبالي باريد تمبث في جوانبه ،
وحفر تطراً عليه وحشرات تنساب فيه . الجبل يهضم هذه المكروهات المزعجات
كلها ، ويظل على عظمته وشسه مشرفاً على مناظر فتانة خالصة فيقري اللاجئ
اليه متهماً لتناظره واناً لحاظه .

تأملات المحبة البشيرية ، فمرفت تماماً - سر الاديان التي اوصتنا بها وحرقتنا
عليها وترحمت على القطب الكبير محيي الدين بن العربي حيث قال :

ادين بدين احب انى توجهت ركابه ، فالحب دني وانا نبي

وصل محدي في حديثه الى هنا ثم امسك عن الكلام حنينة ليربح لسانه
ويستجده جنانه اقلت له :

— لله درك لقد افدت واجدت في هذه التأملات ، واشترتني بما كنت عنه
غافلاً من حسن تأثير اللذة المباحة والمسرور الشريف على العاقل . ولكن ، مقابل
اللذة والمسرور في الحياة ، نرى المأ وحزنناً فهل فكرت في انسابها وهل استوحيت
شيئاً منها كما استوحيت من اللذة والمسرور ؟

— نعم فقد أصابني سريراً أوقات حزن والم واشمرتني كما اشمرت غيري
بمرور هذه الدنيا وغدرات الزمان ونبهتني الى الحكمة الرائعة في قول عمر بن
الوردى :

فَصَرَ الآمَالِ فِي الدُّنْيَا تَفْزُرُ فِدْلِيلُ الْعَفْلِ تَقْصِرُ الآمَالُ

— زويدك يا اخي فقد سقطت في تناقض حكيم من حيث لا تدري .

— ما التناقض الذي تعنيه ؟

— الم تجربني منذ هنية ان ساعات اللذة والسرور اقتنتك بان الهناء جدير
بالانسان العاقل ، وانه يجب ان يفتح صدره لاغتفار كل اعوجاج وخلل سيأ
وراء صفو الحياة . والآن تقول ان اوقات الحزن والم اشمرتك بمرور هذه الدنيا
وغدرات الزمان . فكيف توفى بين السمرورين او بين الحكيمين ؟

— ليس بينهما تناقض وتناقض . خلافاً لما قد يتبادر الى الذهن لاول وهلة .

ار نسيت اني لما قلت ان الانسان العاقل ينبغي له ان يقتنم بيجة الحياة فهي
جديرة به وهو جدير بها ، اردت بيجة الحياة نسيماً ، وذكرت هذا القيد صريحاً .
فعلية ان يسهى الى مباحج الحياة التزيية على قدر ما تواتيه الفرص فلا يجوز ان
يضيمها سدى لدواع ثابوية كما لا يجوز ان يزيد المحن والبلاء على نفسه بسوء
سلوكه وسوء معاشرته وحرصه على كل مكايده ومناكدة واتخاذ مذهب التنازم
عرض عن مذهب التفاؤل . فليس معنى ذلك اننا جحدنا قلة تبات الدنيا على حالة
رغد وسرور ولا اننا جحدنا غدرات الزمان وحرادته وكرارته . بل بمكس
ذلك اشرفنا من طرف خفي بانجاز الحطة الآتف ذكرها لمكافحة جانب من
تلك المرعجات وتلك الكروب . ثم لما قال ابن الوردى بيته الذي تتلنا به :

« قَصَرَ الآمَالِ فِي الدُّنْيَا . . . » لم بشر علي وعليك بالجمود والحدود وعدم السعي
وراء شيء من الاهداف في حياتنا . لم ينهنا عن الامل بتاتا بل نهانا عن الاستعمال
في الامل الى حد فاحش يجلب العناء والشقاء مما يقع فيه كثيرون . قال : قصر
الامل . اي اجملها معقولة محدودة بحيث يتيسر تحقيقها وتحقق معظمها فيكون
لك غبطة ورضى . ولو اراد غير ذلك لاختطأ ولاورد بيته هكذا : اقطع الآمال
او اهجر الآمال في الدنيا تفز . فالبلادة ونحوها الهمة لا خير فيها كما انه لا خير

في المطامع الجامحة. والخطئة التي هي التنازل وسعة الصدر مع اتخاذ الحيطة لكل امر على قدر الامكان ومع وضع كل شيء في موضعه وهذا هو لباب الحكمة بل تعريفها عند جمهور من المحققين وهي خطة لم يندم اصحابها قط ولن يندموا. — صدقت واصبت . ولكن هل اوصى اليك الحزن والالم شيئاً آخر غير الشعور بنور الحياة بحيث ينبغي للماقل ان يقضيها متيقظاً لها منتبهاً لطبيعتها غير جازع منها ولا مستغرب فعلها اذا صدمته . هل استرحيت شيئاً آخر غير هذه النظرية التي شرعها و اشار اليها كثيرون قبلك ؟

— انني يا صاحبي لم ادع ابتكار شيء . ولا اكتشاف في ما قلته وساقوله بل اتوخى جمع شمله وابطاح معالنه تذكيراً وتقييهاً . نعم اوصى اليّ الالم في اثناة . مقاساتي له ان مجرد غيابه وتخاص المرء منه يجب ان يحسب نعمة سابقة لا تعادها نعمة . وهكذا كنت اعد نفسي اسعد خلق الله في كل فترة واحدة بين الم والم . وانا لا اكاد اصدق بوجود تلك الفترة المباركة لعظم اغتباطي بها . فلما شئت تماماً من الداء المؤلم وبعد عني عهد الآلام نسبتها وعدت الي ديدني لا احسب مجرد خلاصي من الالم نعمة وسعادة ، بل اشترط للمعادة الف شرط من غنى ووجاهة ورفاهية عيش في الضروريات والكليات وتفوز كلمة الي غير ذلك من الاماني العديدة . وهكذا كان ولا يزال شأن غيري من ابناة آدم . تكون المعادة الصحيحة في كيانهم وحياتهم البسيطة فلا يلتفتون اليها بل يبحثون عنها في اعالي الجب وطبقات الارض واقاصي المصدر ، حتى اذا نابههم مرض او فقر او موت حبيبهم او سجن او مخاوف او اهانات او مجاعة او معضل من المعضلات او نحو ذلك من المضايق احسروا بالنعمة السابقة التي كانت حواليتهم ومعهم فلم يعرفوا قدرها ولم يقيموا لها وزناً .

...

هذا هو الحديث الحكمي الذي افضى به الي من اعرفه واثق به اكثر من كل الناس . دونته بقلمني آملاً ان ينتفع به من المطلعين عليه اهل الحفاقة والاعتدال الذين يستحقون التوفيق والانتفاع .

